المادة الدراسية: النثر العباسي

المستوى الدراسي/ الثالث

عنوان المحاضرة : فن الرسائل

أ.د. محمد عبيد صالح

فن الرسائل:

تطورت الفنون النثرية في العصر العباسي تطوراً ملحوظاً وقطعت شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والتقدم بعد الإنفتاح الكبير على أممٍ أخرى وتمازج الثقافات، وكما هو معروف فإنَّ الإنشاء رهين برقي الحياة وتطورها. وكانت الرسائل بأشكالها المختلفة في مقدمة هذه الفنون ازدهاراً واتساعاً؛ لأنها مرتبطة أشد الارتباط بحياة الناس جميعاً ولا سيما العاملين في مرافق الدولة والقائمين بشؤون السلطة يقول الدكتور طه حسين(ليس غريبا اذن أن تتغير طبيعة النثر في آخر القرن الثاني وطول القرن الثالث وأن تكثر موضوعاته وأن يزاحم الشعر حتى يسبقه فقد كان النثر لا يكاد يتجاوز النثر السياسي والتاريخ ....أما في القرن الثاني وطول القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً

تـؤدى فيـه جميـع العلـوم الشـائعة علـى كثرتهـا واختلافهـا.... وهـذا طبيعـي لان النثر ايسر وابسط وهو اقدر واوسع للمعاني .

وكـان فـي العصـر العباسـي دواويـن عـدة منهـا ديـوان الخـراج وديـوان النفقـات وديـوان الجـيش وديـوان الرسـائل، وفـوق هـذه الـدواوين مـا يسـمى ديـوان الزمـام، الـذي ينظـر فـي ضـبط كـل ديـوان علـى حـدة، وبجانـب هـذه الـدواوين العامـة فـي بغـداد دواويـن فـي الولايـات للخـراج والرسـائل ودواويـن اخـرى لأوليـاء العهـد وللأمـراء والـوزراء وكبـار القـواد، ومـن لـم يتخـذ مـن هـؤلاء ديوانـا كبيـرا كـان لـه كاتبـا يكتـب عنـه وينظـر فـي تـدبير امواله ونفقاتـه، وبـذلك نشـطت الكتابـة فـي العصـر العباسـي نشـاطا واسـعا فقـد تـوفر عليهـا مئـات مـن أصـحاب الاقـلام يحـدوهم فـي ذلـك مـا كانـت تـدره علـيهم مـن أرزاق واسـعة وكـان مـن يظهـر مـنهم مهـارة فـي دواويـن الخلافـة سـرعان مـا يرقـى الـى رياسـة الـديوان الـذي يعمـل فيـه، وقـد تُقبـل عليـه الـدنيا، فيصـبح رئيسـا لمجموعـة مـن الـدواوين وقـد يصـبح وزيـرا للخليفـة يسـوس الدولـة ويـدبر امورهـا، فـإن لـم يصـبح وزيـرا اصـبح واليـا لإقلـيم مـن الاقـاليم، مثـل الحسـن بـن البحبـاح البلخـي الـذي كتـب للمهـدي والهـادي والبرامكـة وقـد ولـى مصـر فـي عصـر الهـادي والامـين، ومثـل الحسـن بـن رجـاء كاتـب المـأمون الـذي ولـى فـارس ومثـل عمـر بـن مهـران كاتـب الخيـزران ام الرشيد وقد ولاه مصر بعض السنين .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة في هذا العصر الجسر الذي يصل به الشخص الى أرفع المناصب وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يلقى الاعجاب في كل مكان .

ويمكن تقسيم الرسائل آنذاك الى نوعين الأول: الرسائل الديوانية او ما يسمى بالمكاتبات الرسمية وغالبا تكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد بأقلام المتخصصين بصنعة الكتابة وهم كما قال الجاحظ **(لا يقفون الا على الالفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى الالفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور عمرتها واصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الاقلام على مدافن الالفاظ واشارت الى حسان المعاني)** ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ انها كانت تتناول تصريف اعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة واخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والاعياد واخبار الولايات ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام في تدبر السياسة والحكم .

وكانت الرسائل أما طويلة تميل الى الشرح والتفصيل، مثل رسالة الخليفة المعتصم الى ملوك المسلمين بعد ما قبض على بابك الخرمي وقضى على

ثورته التي دامت عشرين عاما ، وايضا ما كتبه مطرف أبن أبي مطرف العبدي الذي كان يتقلد ديوان الخراج في عهد المهدي وهو من البلغاء المجيدين وما ورد له رسالة الى بعض العمال كلها إعذار وإنذار يقول فيها(**أما بعد فان الله حبب الى كل مسلم شُعبة من دينه، فمنهم من حبَّب اليه الصلاة فهو قانت اناء الليل ساجدا وقائما، يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه، ومنهم من حبب إليه الزكاة فهو ينفق ماله بالليل والنهار سرَّاً وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم ، ومنهم من حبب اليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذبُّ عن حريمهم ويقاتل من دونهم وفاءً بعهد الله وتسليما لبيعة الله، فأما الراسخون في العلم ممن قد عرف سيرتك وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسالونه بآلائه مخلصين وبأسمائه مُلحفين أن يصيبك بعذاب من عنده او بأيدهم، لما استحلّت جنودك من سفك الدماء، وأباحت رسلك من حُرَم النساء ...فويل لك ولكتّابك مما كتبت أيديكم وويل لكم مما تكسبون**).

وواضح كثرة اقتباساته من الفاظ الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى:(**أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (٩)**

وقولـه تعالى(الَّـذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهـارِ سِـرًّا وَعَلانِيَـةً فَلَهُـمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ وَلا خَـوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُـونَ) وقولـه تعالى(وَمَثَـلُ الَّـذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمُ ابْتِغـاءَ مَرْضـاتِ اللَّـهِ وَتَثْبِيتـاً مِـنْ أَنْفُسِـهِمْ...) وقولـه تعـالى(وَمِنَ اللَّيْـلِ فَسَـبِّحْهُ وَأَدْبـارَ السُّـجُودِ) وقولـه تعالى(فَوَيْـلٌ لَهُـمْ مِمَّـا كَتَبَـتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) وقد توفي مطرف سنة ١٦٤هـ.

امـا النـوع الاخـر: فهـو خطـب قصـيرة مـوجزة نسـتطيع ان نطلـق عليهـا عبـارة (مـا قـلَّ و دلَّ) مثـل الرسـالة التـي كتبهـا يوسـف بـن صُـبيح بـن عبـدالله بـن علـي الـى أبـن اخيـه السـفاح يُعزيـه عـن أبـنٍ لـه (**أمـا بعـد فـإن أحـقَّ النـاسِ بالرضـا والتسـليم لأمـر الله جـلَّ وعـزَّ مـن كـان إمامـا لخلـقِ الله وخليفـة لرسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم فتعـزَّ أميـر المـؤمنين بفهمـكَ وارجـع فـي وعـدِ الله جـل وعز من الصابرين الى علمك)**

ومـن الرسـائل المـوجزة جـدا مـا كتبـه طـاهر بـن الحسـين الـى الخليفـة المـأمون بعـد مقتـل علـي بـن عيسـى بـن ماهـان **(كتـابي الـى أميـر المـؤمنين ورأسُ علـي بـن عـيس بـن ماهـان بـين يـديَّ، وخاتمـه فـي يـدي، وعسـكره مُصـرفٌ تحـت أمري والسلام).**

والنوع الثاني من الرسائل التي شاعت في العصر العباسي الإخوانية التي يتبادلها الاصدقاء فيما بينهم في مناسبات شتى وكانوا يتأنقون في صياغتها ويُعنون بديباجتها ويسندونها بآيات قرآنية واحاديث نبوية واقوال الصحابة والتابعين والاشعار والأمثال والحكم، وقد نما هذا النوع من الرسائل نموا واسعا ، ونقصد بالرسائل الاخوانية تلك الرسائل التي تصور عواطف الافراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب وإعتذار واستعطاف ومن تهنئة وغيرها من المناسبات وكان وراء هذا الانتشار الواسع للرسائل الاخوانية أمران:

الاول: ظهور طبقة ممتازة من الكتّاب الذين يجيدون فيه اجادة رائعة وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين إذ كانوا يتمتعون بثقافة واسعة .

أمّا الامر الثاني: فهو مرونة النثر ويسر تعابيره وقدرته على تصوير المعاني بجميع فروعها، قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية، وقد أشتهر الكثيرون بها أمثال أبن المقفع ومحمد بن زياد الحارثي وكلثوم بن عمرو العتابي الذي قال عنه أبن قتيبة كان شاعرا محسنا وكاتبا في الرسائل مجيدا ولم يجتمع هذان لغيره فمن رسائله اللطيفة ما كتبه الى أحد اصدقائه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة وقطيعة(**لو اعتصم شوقي اليك بمثل سلوك عني لم ابذل وجه الرغبة إليكَ، ولم اتجشَّم**

مـرارة تماديـكَ ولكـن اسـتخفتنا صـبابتنا، فاحتملنـا قسـوتك لعظـيم قـدرِ مودتـك وانت أحق من أقتص لصلتنا من جفائه ولشوقنا من ابطائه.

وكتـب بعـض الكتـاب رسـائل طريفـة ومفيـدة شـبيه بمـا يعـرف الان **بـالخواطر الادبيـة** تناولـت موضـوعات كثيـرة تتعلـق بـالأخلاق والتهـذيب والتوجيـه والنصـح والارشـاد وشـؤون الحيـاة المختلفـة مثـل رسـالة غسـان بـن عبـد الحميـد فـي الاخـوة والوفـاء وحفـظ **العهـد (أمَّـا بعـد فـإنَّ الله جعـل العبـاد اطـواراً فـي أخلاقهـم كمـا جعلهـم أطـواراً فـي صـورهم وجعـل بيـنهم أمـوراً يتـآلفون عليهـا ويُعملـون أحلامهـم فيهـا: مِـنْ حُـرَمٍ يتجـاملون بهـا وحقـوقٍ يتنازعونهـا، ومـودةٍ يتعاطونهـا، واخـوّة يتـداولونها، ترعـى بوفـاء وتـؤدى بأمانـة وتضـيعُ بتقصـير وتُنتقص بخيانة).**

<u>مصادر المحاضرة:</u>

- الادب العربـي فـي العصـر العباسـي، تـأليف د. نـاظم رشـيد دار الكتب للطباعة والنشر /الموصل،١٩٨٩م
- تـاريخ الادب العربـي العصـر العباسـي الاول تـأليف د. شـوقي ضيف الطبعة ٨، دار المعارف، القاهرة.
- تـاريخ الادب العربـي العصـر العباسـي الثـاني تـأليف د. شـوقي ضيف الطبعة ٢، دار المعارف، القاهرة.